... وانهارت شبه دول

حرب استباقية!

إيلي شلهوب

مفاجئ وصادم. لعلهما التوصيفان الأكثر دقة للهجوم العاصف الذي شنه تنظيم «داعش» داخل العراق وأدى إلى سقوط محافظة نينوى بكاملها تحت سيطرته وأطراف من صلاح الدين وملامسة قواته بغداد، وذلك بعد أيام من هجوم لم يكن أقل عصفاً وصدماً، لكنه تهاوى على عتبات مرقد الإمامين العسكريين في سامراء، بعدما تدخلت كل القوى المعنية لتجنيب بلاد الرافدين مصيراً مشابهاً لما جرى في 2006. وحقيقة أنه يحصل في بلد عجزت القوى الحاكمة فيه منذ أكثر من عقد من الزمن عن بناء ولو حتى خيال دولة، لا تغير من هول الهجوم شيئاً.

في خلال «غزوة سامراء»، كان التقدير السائد بأن الدولة الإسلامية في العراق والشام تستهدف تدمير المرقد في محاولة لجر البلاد إلى أتون حرب مذهبية، تبدو الأكثر استفادة منها. لم يظهر حينها حجم العملية الفعلية التي قرر «داعش» تنفيذها إلا بعدما سقط مطار الموصل، واستسلمت المدينة للتكفيريين بعدها بساعات.

عديدة هي الأسئلة التي خرجت من كل حدب وصوب تحاول استبيان ما حصل. كيف تمكن «داعش» من تحقيق هذا «النصر»؟ أين كان الجيش وقوات الأمن العراقية؟ ما هو حجم التواطؤ؟ وغيرها كثر من الأسئلة لعل الأهم بينها ثلاثة: من اتخذ القرار بهذه العملية؟ وبأي هدف؟ ولماذا في هذا التوقيت؟

نظريات كثيرة يجري تداولها في الأروقة المعنية، الأسهل بينها معزوفة «الهجرة الجماعية» من سوريا، والمؤامرة الإقليمية التي تقودها «السعودية وقطر وتركيا» من أجل الثأر من النصر الانتخابي الذي حققه نوري المالكي والذي جعله الحاكم الأوحد لبلاد الرافدين.

لا أحد يمتلك معطيات تأكيد هذه الرواية أو نفيها، وإن كان العارفون يستبعدون تلك الهجرة المزعومة في ظل تقدم ميداني يحققه «داعش» في الجبهة السورية، ويهزأون في الوقت نفسه من الادعاء بقدرة الدول الثلاث على التحكم بهذا التنظيم، وإن تعاونت معه في لحظات مفصلية سابقة بفعل تقاطع المصالح الظرفية.

التحليل الأكثر منطقية ينحو باتجاهين، يلتقيان في نقطة ما. الأول، يقدّر أن «داعش»، الذي أظهر حراكه السوري مدى دقته في استقراء المتغيرات والتعامل معها بمرونة وانسيابية، استشف في الأفق تفاهماً أميركياً إيرانياً وإرهاصات جبهة إقليمية لتصفية التيار الإسلامي التكفيري، وعلى رأسه الدولة الإسلامية في العراق وبلاد الشام. جبهة نشأت بذرتها الأولى في سوريا، ولحظ ارهاصاتها في العراق مع ما يحكى عن استعدادات عسكرية وصفقات تسلح لاستعادة الأنبار إلى كنف الدولة. كل ذلك دفع هذا التنظيم إلى شن هجوم استباقي تحصيناً لمواقعه واستعداداً للمعركة الطاحنة المرتقبة.

أما الاتجاه الثاني، فيقدر حصول عملية استدراج لهذا التنظيم في فخ، على غرار ما فعلته الولايات المتحدة بصدام حسين قبيل غزوه للكويت، من أجل التحشيد إقليمياً بهدف تصفيته.

ردود الفعل الدولية على سقوط الموصل تعزز هذه المقاربة. مسارعة أميركية إلى تأكيد استعداد واشنطن لتقديم «كل المساعدة اللازمة»، وأولها الأسلحة. بان كي مون بات «قلقاً بشدة»...

مشكلة هذا التحليل أنه يتجاهل حقيقة أن «داعش» بهجومه هذا، يكون قد أسقط أحد الثوابت لديه في قواعد الاشتباك التي وضعها لحراكه في العراق: تحييد الأكراد لغاية في نفس يعقوب. صحيح أن من مصلحة الأكراد إبقاء محافظات نينوى وصلاح الدين وكركوك، وغالبيتها مساحات متنازع عليها بين بغداد وأربيل، في حال اضطراب. لكن الأكيد أن السلطات الكردية لن تقف مكتوفة اليدين مع تمركز «داعش» على حدود الإقليم الذي تفاخر باستقراره. واقع وضع إربيل وبغداد في خندق واحد، لا بد أن يدفع الطرفين إلى وضع خلافاتهما جانباً لمواجهة الخطر الداهم عليهما.

المشكلة الثانية أنه تحليل لا يجيب عن السؤال: على ماذا يراهن «داعش» للصمود في ظل إدراكه أن عمليته العسكرية تلك ستوحد أطراف العراق كله والقوى المعنية في المنطقة ضده؟

ولعل الانكشاف الأكثر خطورة في ما جرى كان تعرية النظام العراقي الحالي، الذي لم يفشل فقط في إطلاق عملية إعادة إعمار للبلاد المدمرة في ظل فساد غير مسبوق، بل عجز عن إعادة بناء قواته المسلحة. قوات تلامس من حيث العدد مليوناً ومئة ألف عنصر، لكنها من حيث الفعالية عجزت عن فرض الأمن، حتى في الجنوب المتجانس، حيث لا يزال التكفيريون ينجحون بين الفينة والأخرى في قطع الطريق الرئيسي الذي يربط بغداد بالنجف وكربلاء، فضلاً طبعاً عن عشرات القتلى الذين يسقطون يومياً في بغداد، والفشل الذريع في دخول الفلّوجة، رغم مقتل وجرح الآلاف من الجنود العراقيين.

أما الإيجابية الوحيدة في ما يحصل، إن كان يمكن استخدام هذا التوصيف، فهو دفع القوى السياسية العراقية المتقاتلة إلى وضع خلافاتها جانباً وتسريع الخروج من أزمة الحكم المستعصية التي تعصف بالبلاد، تحت عنوان أن «لا صوت يعلو فوق صوت معركة» تتهدد الجميع من دون استثناء. اتجاه عززه موقف مرجعية النجف، في ظل تسريبات عن قرار بمقاومة شعبية لتنظيم «داعش» عبر تسليح الأهالي لمواجهته، في خطوة يدرك الجميع كيف تبدأ، لكن أحداً لا يعرف ما ستكون عليه خواتيمها.

دولة البدو في العراق الشام

المشهد لا يفسّره إلا ابن خلدون: عصبية ناشئة لدولة بدوية ـ دينية، تقاتل للسيطرة على مداها الحيوي، بما فيه من مدن تاريخية: «داعش». في الموصل (الجسر، مركز الوصل الذي يربط شمال العراق والجزيرة الفراتية وبادية الشام الممتدة بين القطرين) ليست مجرد غزوة، بل هي مشروع عاصمة «الدولة» التي استكملت الكثير من عناصرها الأيديولوجية والاقتصادية والقبائلية والعسكرية، وتقاتل للسيطرة على حدود«ها» الاجتماعية التاريخية، في مواجهة مع الدول الوطنية الحديثة في سوريا والعراق (وقريبا في الأردن)، ومع شبيهتها الأسبق، الدولة الوهابية ـ السعودية

ناهض حتر

من «الرقة» إلى «الموصل»، تعيد «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، رسم الخريطة الجيوسياسية المشرقية، وتعصف بالحدود بين الدولتين الوطنيتين اللتين تشكلتا عقب الحرب العالمية الأولى، سوريا التي يبعدها التمرد الإرهابي عن السيطرة على الجزيرة الفراتية والجزء السوري من بادية الشام، والعراق المفكك الذي أظهرت ميليشيات «داعش»، أول من أمس، تفوّقها الكاسح على جيش لا يزال رخواً ومخترقاً، وسط انقسامين: مذهبي وإثني، فتحا الباب أمام عصبية قبائلية. مذهبية تكفيرية متطرفة، لقتال يبدو ناجحاً حتى الآن، ليس فقط لإنهاء سيطرة بغداد على ولاية الموصل والجزء العراقي من بادية الشام، بل ولإلغاء مجمل المنظومة المحلية (السنية) وتهديد استقلال كردستان العراق جدياً، لأول مرة منذ 1991.

من الصعب أن نفهم المشهد الذي يكوّنه مشروع «الدولة» الذي يتحقق، بصورة سريعة ومدهشة، على مرأى القوى الإقليمية والدولية، من دون أن نزيح من الأذهان، الحدود السياسية القائمة في المشرق العربي، لكي نتعرّف إلى الجغرافيا التاريخية للأقاليم المشرقية؛ على الخريطة، تجاور ولاية الموصل «العراقية»، الجزيرة الفراتية «السورية» في ما يشبه كتلة جغرافية متداخلة، تحاذيها، وتتداخل معها، بادية الشام الكبرى التي تضم جنوب شرق سوريا وغرب العراق وشرق الأردن وشمال السعودية، وتشكل مثلّثاً رأسُه عند حلب شمالاً وقاعدته عند خليج الكويت في الشرق وخليج العقبة في الغرب. وكل هذه المناطق تشكل معاً إقليماً هو الإقليم الطولي الخامس من سوريا الطبيعية، الذي يلي الشريط الساحلي، فسلسلة المرتفعات الغربية، فسهل البقاع الممتد إلى الأغوار ووادي عربة، فسلسلة المرتفعات الشرقية التي تنحدر عنها البادية المترامية الأطراف. وتسيطر «داعش» اليوم على معظم الأجزاء السورية والعراقية من هذا الإقليم.

لا يمكن، في الواقع الجغرافي الاجتماعي التاريخي، الفصل بين ما هو شامي وعراقي؛ ولطالما دارت، وتدور مناقشات يحفزها التداخل، وتظهر فيها، على الدوام ومنذ ما هو معروف من الأدب الجغرافي القديم وحتى أنطون سعادة، معايير متعددة للحدود الفعلية بين القطرين. وفي نبذة في موقع صديق لـ«داعش» أن «الجزء الشرقي من سوريا يعتبر من الجزيرة وليس من الشام. وقد كانت ولاية الجزيرة مستقلة عن ولاية الشام في بعض الأحيان. وعند الفتح الإسلامي كانت مستقلة عن الشام وعن العراق. وكان العراق، آنذاك، يشمل الكوفة والبصرة». وفي التاريخ السياسي للإقليم المتداخل، نلاحظ مثلاً أن تقهقر الخلافة العباسية بسبب التغلّب التركي في بغداد، حفز الحمدانيين، مستندين إلى العصبية العربية، إلى تأسيس إمارة مقاتلة، حكمت حلب والموصل وامتد نفوذها إلى بلدان وقرى الفرات والشام خلال الفترة من 890م إلى 1004م. وينتسب الحمدانيون إلى قبيلة تغلب بن وائل من القبائل العربية التي كانت مساكنها أرض الجزيرة شمال شرق سوريا.

يقول موقع قبائلي على النت في مقال متبجح إن «عنزة» هي «سيدة بادية الشام»، وقد كان الأمر كذلك في العهد العثماني، بعدما زالت إمارة آل فضل التي اعترف بها المماليك على عرب الشام. ولطالما استدعى العثمانيون قبيلة «عنزة» لمقاتلة قبيلة «شمر» المتحدية، أو حتى افتعال نزاعات مسلحة بين القبيلتين الكبيرتين لضمان سيطرتها السياسية.

لكن حاضنة «داعش» الأساسية تقع في محافظة الأنبار الشاسعة من بادية الشام، وهي منازل أربع متحدات قبلية هي «الدليم» و«زبع» و«عنزة» و«العكيدات»؛ فـ«عنزة» تقع، هنا، في الترتيب الثالث، بينما تعلو مرتبتها في بادية محافظة الموصل، المحاذية للأنبار.

«أسوأ جار لأي مدينة. كما يقول الباحث العراقي أحمد هاشم الحبوبي. هو الصحراء؛ فهي منبع الوحوش البشرية الكاسرة ذوي الطباع الحادة والفكر المتطرف». ويلاحظ الحبوبي، منذ خريف 2013، أن الموصل شكلت مورداً مالياً أساسياً لـ«داعش» من خلال الخوّات التي فرضتها على المدينة. وهو يشير، بصراحة، إلى تفاهم غير مكتوب بين قوى الجيش والأمن في الموصل وبين «داعش» أساسها الخوف والفساد والأهم الشعور بأن العدو المشترك هو نظام الحكم في بغداد. ولعل الانهيار الأمني السريع في

هكذا دب «الرعب» ما

جوي سليم

لم تشفع سنوات الغزو الأميركي التسع والحروب المذهبية والتفجيرات اليومية للعراق في تجنيبه نار «الربيع العربي». الترابط بين بلاد الرافدين وسوريا كان أقوى من كل الحسابات الأخرى.

ومثلما محت الحرب السورية الحدود بين «بلاد الشام» مبينةً الوحدة الجغرافية بين سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، كذلك لم يشذ العراق عن القاعدة التي تقول: ما يجري في الشام يمتد إلى الجوار السوري كله.

التنظيم المتشدد الذي كان يدعى سابقاً «الدولة الإسلامية في العراق» برز بـ«حلته الجديدة» قبل سنتين، حين بدأت أعداد غير محددة لغاية الآن تنشط بين شمال شرق سوريا ومحافظة الأنبار غرب العراق.

بدأت الحكاية عندما شن تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق والشام» هجوماً، في تموز الماضي، على «سجن بغداد المركزي»، أبو غريب سابقاً، محرراً 500 مقاتل، بينهم قياديون في التنظيم. منذ ذلك